

أوليفر تويست

تشارلز ديكنز

عادل الغضبان



دار المعارف

وفي مساء يوم من الأيام ، بلغ الجوعُ مبلغه من « أوليفر » ورفقائه الصغار ، فاتفقوا فيما بينهم على أن يختاروا واحداً منهم ليطلب من الطباخ مزيداً من الحساء ، حينما يجمعهم في غرفة الطعام ، ويوزع عليهم نصيبهم من ذلك القوت الذي لا يروى ولا يُشبع ؛ فوقعت القرعة على « أوليفر » فنهض يقدمُ رجلاً ويؤخرُ أخرى ، وحمل قصعته بيده ، وذهب إلى الطباخ وقال له وهو يرتجفُ من الخوف :

— « سيدى ! إن الطفل ” أوليفر “ قد طلب المزيد من الطعام ! »
فارتسمت على وجوه أعضاء المجلس عند سماعهم هذا النبأ ، أمارات

— « نعم يا سيدى ! » فقال الرجل ذو الصدر الأبيض :
— « ستكون خاتمة هذا الطفل حبلَ المشقة . . . أجل ستكون
خاتمته حَبْلُ المشقة . . . »

وَنَقَضَ قرار المجلس فَرَجَ « أوليفر تويست » في القبول المظلم ، وعُلِقَ على باب الملعب الإعلان الذي أرادَه مجلس الإدارة ، وانقضت أيام تسعة ، فلم يتقدّم أحدٌ لإعفاء الملعب من ذلك الصبي النّهيم الأكل . وفي اليوم العاشر ، جاء إلى الملعب رجلٌ طويلُ القامة ، نحيف البنية قويها ، مفنول العضلات ، عابسُ الوجه ، وكانت صناعة الرجل دفنَ الموتى وصنّعَ التوابيت ، فاستقبله موظف الملعب ، وتبادل وإياه التحية ، ثم خاضا معاً في الحديث عن الصبيّ « أوليفر تويست » فقَبِل

وكرهًا إلى المائدة وطَفِقَ يقلب محتواها بين أصابعه ، وعيناه تَقْدَحَان بِشَرَرِ الجشع والحدَر .

وحدَّقَ «أوليقر» من ثنايا جُفونه في ذلك الذي يقلبهُ اليهودى العجوز يديه ، فإذا هو ساعاتٌ من الذَّهَبِ مختلفةُ الأحجام والأشكال ، و«هوامٌ ومشابكٌ» ، وأسورةٌ من الذَّهَبِ المرصَّع بالألماس ، إلى غير ذلك من الحلى والجواهر التي لم تقع عين «أوليقر» عليها قطّ قبل ذلك اليوم . وتقلب «أوليقر» في فراشه ، فاضطرب اليهودى اضطرابًا شديدًا ، وأعاد الجواهر إلى علبتها بسرعة البرق الخاطف ، ثم وضع العلبة في درجها السرى من الخزانة ، وأمسك بسكين كبيرة ماضية الشفرتين ، واستعدَّ للدفاع عن كنزه ، متوقعًا أن يُفتح عليه باب الغرفة ، ويدخل منه اللص الطامع في ثروته ، ولكنه أدرك في الحال أن ليس في الدار غريبٌ مغتصب ، فاستندار إلى «أوليقر» فرآه قد استيقظ وإن لم ينهض من فراشه ، فقال له حانقًا مغضبًا :

— «ماذا تريدُ أيها الوقح؟ لماذا كنتَ ترقبني؟ ماذا رأيت؟ أجب على الفور وإلا فقدت الحياة!» .

فقال «أوليقر» في دَعَةِ ورقة ، بعد أن نهض من فراشه :

— «لم أستطع النوم أكثر مما نمتُ يا سيدى ، وعذراً إذا أنا أزعجتُك»
واثقلت عليك!



٣

صحا «أوليقر» في صباح اليوم التالى من رُقاده وكانت الضحى قد ضربت أطناها ، فأدار نظراته في أنحاء الغرفة ، وعيناه شبه مُغمضتين ، فلم يجد فيها إلا اليهودى العجوز ، وقد جلس إلى المائدة ، ووضع عليها فنجانًا كبيراً من القهوة يرشفُ منه ذلك الشراب الأسود جرعة بعد جرعة .

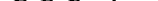
ورآه بعد قليل قد عمد إلى الصَّفير والتغنى بكلمات متقطعة ، ثم سمعه يناديه باسمه فلم يجب «أوليقر» النداء ، فالنوم كان لا يزال عالقًا بأهدابه ، ولما أيقن العجوز أن «أوليقر» غيرُ صاح ، نهض إلى خزانة محفورة في قلب الحائط ، ففتحها وأخرج من بعض أدراجها السرية ، علبة كبيرة

وجلسوا جميعاً يتناولون طعام الإفطار ، ولما فرغوا منه شهد « أوليفر » اليهودى العجوز والغلامين يقومون معاً بحركات غريبة مضحكة ، فقد رأى العجوز يضع عُلْبَةً من علب لُفافات الدُخَان في أحد جيوب سُرِّوَالِه ، ويضع محفَظَةً في جيبٍ آخر ، ثم رآه يضع في جيب صدره ساعةً مربوطة بسلسلة ، ولا تَسْكُنُ عَنْ دهشة « أوليفر » عندما شاهد العجوز قد اعتمد على عصا ، وأخذ يَجُولُ منسكعاً في جوانب الغرفة ، كما يتسكع الناس الذين يمشون في الشوارع ، ولا عمل لهم إلا الفرجة والتنزه ، فتارةً كان يقفُ أمام الموقد ، وتارةً أخرى أمام الباب ، يجيل نظره فيه كأنه واجههُ حانوت من الحوانيت ، وطوراً ثالثاً كان يتفقد جيوبه كمن يخشى اللصوص والنشَّالين ، وكانت حركاته تلك من الغرابة بحيثُ أضحكت « أوليفر » وكاد يستلقي على قَفَاه من شدة الضحك . وكان الغلامان يتبعانه عن كَسْبٍ ، وكانا كلما التفت العجوز إلى الوراء توارياً عن نظره بِخِفَةٍ ورشاقة ، حتى تقدَّم أحد الغلامين منه ، وداسَ على رجله ، في حين صدمه الآخر من الخلف ، وبأسرع من تردُّد الطرف كان العجوز قد فقد كل ما في جيوبه : من عُلْبَةِ الدُخَان والمحفَظَة والساعة ، حتى المنديل

الشلن جزاءً مقدماً على عملك . » فأذعن الغلام لأمر العجوز وانكب على عمله بهمة ونشاط ، ولم يخامره أى شك من الشكوك وبقى « أوليفر » عدة أيام لا يغادر المنزل ، أو لا يستسمح له بمغادرة المنزل ، حتى ضاق صدره واشتاق إلى الحرية والفضاء الواسع ، وكان اليهودى العجوز قد عهد إليه فى نزع الأساء من كمية كبيرة من المناديل ، لم يدرك « أوليفر » من أين تهبط عليهم ، وكان قد أشركه أيضاً فى اللعبة

 ۳۳


 ३६
 


 ۳۵
 



٤

عاد « جاك » و « شرلو » إلى منزل اليهودي العجوز ، فلما رآهما
الثنين لا ثالث لهما . احتدم غيظاً وصاح فيهما قائلاً :
— « أين « أوليفر » ؟ »

فجَزَع الغلامان من منظر ذلك الوحش الجاحظ العينين ، والتَزَمَا
الصمت ، فانقضَّ اليهودي العجوز على « جاك » وأمسك بتلابيبه وقال :
— « ماذا جرى له ؟ » فقال « جاك » وقد استردَّ بعض وقاحته وشجاعته :
— « لقد وقع في الفخ . . . ولكن هلاَّ تركتني أتَنفَس ؟ ! » .
لمسوى صوت العجوز هائجاً مزججاً وهو يقول :
— « أيُّها الشقي . . . »

والحنان، فهل تشبه أحداً في أسرة هذه الدار ياسيدي ؟ » فقالت المدبِّرة العجوز :
— « لا يا عزيزي » . فقال « أوليفر » :
— « إن عينيها تفصحان عن الكآبة ، ويختبِّلُ إلى أنها تحدِّقُ إلى
وتريد أن تكلمني » . فقالت المدبِّرة :
— « لا تجهد نفسك فيما لا طائلَ تحته يا ولدي . . . »
وفي هذه اللحظة دخل السيّد « براون » واقترب من سرير « أوليفر »
مستفسراً عن صحته فقال له « أوليفر » :
— « أرجو ألا تكون مستاءً مني يا سيدي ! » فضحك السيّد
« براون » ولاحظ منه التفاتة إلى صورة الفتاة المعلقة على الحائط ثم وزع
نظراته بينها وبين « أوليفر » فقال يخاطب مدبِّرة المنزل :
— « يا لله من هذا الشبَّه الغريب ! . . . » ثم انصرف مسرعاً فقد
حرَّكت الصورة في نفسه لواعج الشُّجون .



وعلمت كذلك أن « أوليفر » مقيمٌ في منزل الرجل ، وأنه قضى نحواً من أسبوعٍ طريح الفراش يعاني سَكَرات الحمى ، وأنه الآن قد تماثلَ للشفاء ، فهو هائى سعيد في ضيافة السيد « براون » يحولُ في أنحاء المنزل ويتنزه أحياناً في الحديقة ، وتُعنى به مديرةُ المنزل عنايةً فائقة ، وتوفّر له أشهى ألوان الغذاء ، وتكسوه بأجودِ الملابس .

فراح اليهودى العجوز لدى سماعه هذه الأنباء ، فن السهل الآن وقد عرفوا مقرّ الغلام ، أن يتصيّدوا الفرص لاختطافه ، والعودة به إلى وكرهم القنذر .

وبحثت العصابةُ في أمر خطف الغلام ، فعهدت فيه إلى الفتاة « نانسي » وطلبت إلى « سيك » أن يساعدها في هذه المهمة ، فأذعن كل منهما للأمر ، واتفقا معاً على تدبير الخطة المحكمة في هذا السبيل ، وأوصاهما اليهودى العجوز بأن يذهبا بالغلام إلى المنزل الثانى . فسوف يتخذهُ هو والعصابة مباءةً له حتى يجدا الغلام ، وسوف يوزع وقته بين ذلك المنزل والحانة التى يؤثّرهما على غيرها من الحانات .

ومنذ صباح اليوم التالى ، بدأت الفتاة « نانسي » والفتى « سيك » يدوران حول منزل السيد « براون » ، وحول الحديقة المحيطة به ، لعلّهما يريان الغلام في ساعةٍ من الساعات وحيداً في الحديقة ، فيصيدها صيد السّمك ، ويطيرا به إلى منزل اليهودى العجوز .

وقضى المتربّصان عدّة أيام في اللفّ والدوران حول مسكن السيد « براون » ، فما وقعت أعينُهما على ضالّتهما المنشودة في أرجاء الحديقة إلا مصحوباً بسيد المنزل أو بالسيدة مديّرتة ، فحال وجود أحدهما مع الغلام دون تنفيذ خطة الخطف تنفيذاً سهلاً هيناً بغير جلبة ولا ضوضاء . وكان « سيك » قد صحب معه في هذه المهمة كلبه المحبوب ، وهو كلبٌ ضخمُ الجثّة ، قبيحُ المنظر ، متحفزٌ للثوب عند أوّل إشارة يشير بها سيّده ، فكان « سيك » يُدارى ما يُساوره من السّأم والملل ، بمداعبة كلبه حيناً بعد حين .

وطالت أيام التّرقب والانتظار ، حتى كاد اليأس يدبّ إلى قلب هذين الأثيمين ، وحتى كادا يرجعان من مهمتهما بخفى حنين ، فحدثت عن دهشتها وفرحهما ولا حرج ، حينما شاهد الغلام في أصيل أحد الأيام يخرج من المنزل متأبطاً عدداً من الكتب ، ويركض ما وسعته الرّكض ، متوجّهاً إلى الشارع العمومى ، فتفاهما بالإشارة على أن يتركاه قليلاً حتى يبتعد عن المنزل ثم ينقضّ عليه ، فلاحقاً به من بعيد دون أن يفقدا أثره ، وهما يسائلان النفس : ما شأنُ الغلام ؟ وعلام يركضُ هذا الرّكض ؟ وإلى أين يجرى بتلك الكتب التى تأبطها ؟

وجليةُ الأمر أن السيد « براون » كان يراجع بعض الكتب في مكتبته بالمنزل ، فرأى أن يُعيد قِسماً منها إلى صاحب المكتبة التى كان واقفاً

— «لَوْلَمْ أَكُنْ حَقِيقًا بِهِ لَمَّا جَاعَنِي . . . وَعَلَامَ يَشْقَى الْإِنْسَانُ وَيَتَعَبُ إِذَا هُوَ اسْتَطَاعَ أَنْ يَحْصَلَ عَلَى الْمَالِ عَنْ طَرِيقِ هَيْئٍ سَهْلٍ ؟ ! » فَقَالَ «أُولَئِكَ» :

فقهته « جاك » و « شرو » معاً من سذاجة « أوليفر » وسلامة طويته ، ودخل عليهما اليهودي العجوز وهما يضحكان ، فأنهياً إليه بجديتهما وحديث « أوليفر » فأمّن على كلامهما ، وأخذ يقصّ على الغلمان أبناء بطولته في أيام الحداثة والشباب ، وكيف كان يتفنّن في النّشل والسّرقة حتى جمع ثروته . وكان هذا العجوز منذ صباح الليلة التي أعيد فيها « أوليفر » إلى وكر اللصوص قد أخذ يتلطّف في حديثه مع « أوليفر » ويغمره بعطفه ورعايته ، ويقدم له أطيب ألوان الطعام ، ويسرد على مسمعه العظة تلو العظة في محاسن السّرقة ، وما تجلبه على السّارق من رفاة العيش ورغده ، ولكن « أوليفر » كان يُعيّره أذنًا صماء ، ويتربّح اليوم الذي يستطيع فيه أن يهرب من ذلك الحميم ، ولكن هيهات ! فقد كانت الحراسة شديدةً عليه حتى لو أراد أن يمكر بالعجوز ، ويتظاهر بقَبُول عَرْضِهِ وإغرائِهِ .

— « اَلتَّصْبِيْحُ حَيٌّ رَجُلًا عَظِيْمًا لَوْ شِئْتَ نَصَحِي وَعَمَلْتَ بِاِرْشَادِي ! »
فَقَالَ لَهُ « اُولِيْفِر » مَتَوَسِّلًا :

– « أنصحك بأن تكون رهن إشارة الفتى ” سيك “ وأطوِّع له من بنانه ، فهو كفيل بأن يدرِّبك خير تدريب » .

— « اتركنا وحدنا قليلاً يا ولدى ، واقتضِ بعضَ الوقتِ في الغرفة الملائقة ، ولا تطمع في الهرب فأنت تعلم أن ليس لها من منفذٍ غير هذا الباب الذي تراه في أقصى هذه الغرفة » .

فامتثل « أوليفر » لأمرِ العجوز ، فلمّا خلا الجو للأثيمين قال
العجوز :

— « متى قرّرت الهجومَ على المنزل الذي طَلَبْتَ إليك أن تسرقه ؟ »
فقال « سيك » :

— « في ليلِ غد » . فقال العجوز :

— « سأرسل معك ” أوليفر “ وسيكون لك عونًا ثمينًا ، فأنا أعرف ذلك المنزل كل المعرفة ، فحسبك أن ترفع ” أوليفر “ إلى الكوّة الصغيرة ، فينفذ منها إلى داخل المنزل ويفتح لك الباب فتدخل منه أنت وصاحبك اللذان اخترتهما » فقال « سيك » :

— « لست أدري لماذا تُصيرُ على ضَمِّ هذا الغلام إلينا ، مع هو عليه من عناد ومكابرة ، فلو هرب منّا مرةً أخرى لم نأمنَ من أن يثي بنا ويكشف أمرنا . » فقال اليهودي العجوز صاحكًا :

— « أنت يا "سيك" تعوزك الفراسة وإن لم تُعوزكِ الجراءة والواقحة ..
 إن هذا الغلام على جانب كبير من الذكاء ، فلو انضم إلينا راضياً مختاراً
 كان لنا منه سنَدٌ أيُّ سنَدٍ . . . أفهمت ؟ » فقال « سيك » :

— « وكيف السبيل إلى اصطحابه معنا وهو نافرٌ منا ومن عملنا ؟ »
فقال العجوز :

— « عليك أولاً أن تبعث "نانسى" إلى "في هذا المساء"، فأسلّمها

 ٦.

إِيَّاهُ ، فَتَسَوِّقُهُ إِلَيْكَ دُونَ أَنْ يَعْلَمَ مِنَ الْأُمْرِ شَيْئًا ، وَلَيْسَ غَيْرُ الْفَتَاةِ "نَانِسِي" مِنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْحَبَهُ إِلَيْكَ ، فَقَدْ وَثِقَ بِهَا الْغُلَامُ وَمَالَ إِلَيْهَا ، بَعْدَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتِي دَافَعَتْ فِيهَا عَنْهُ وَنَاصَرَتْهُ » . فَقَالَ « سَيْكِ » :

... - « وَمَنْ يَقْنَعُ ” نَانَسِي “ بالقيام بهذا العمل وبالسكوت عن
أمرنا المبيّت ؟ » فقال العجوز :

— « أنت . . . إن ” نانسي “ تحبّك وتخشاك ، فاستعمل التهديد والوعيد . . . عليك ثانياً أن تكتم عن الغلام الغاية من اصطحابه معك إلى هدفك ، حتى تصلوا جميعاً إلى المنزل المقصود ، ثم عليك ثالثاً أن تتوعده طول الوقت فيكون لك سامعاً مطيعاً » .

وفي مساء ذلك اليوم أقبلت « نانسي » إلى منزل اليهودي العجوز ،
فحيثته وحيث « أوليفر » وقالت له :

— « ہیا بنا یا عزیزى ! جئت أصحبك إلى مكان جميل أمين » .

ففرح « أوليفر » واعتقد أن ساعة خلاصه من ذلك السجن قد حانت ، فلمّا صار هو والفتاة خارج الدار ، رأى مركبة تنتظرهما ، فركبها وهو مستغربٌ مدهوش ، وسار بهما الخوذيّ دون أن يسألهما عن المكان الذي يقصدانه ، فتطلع « أوليفر » إلى « نانسي » متسائلاً :

— « إلى أين يا "نانسي" ؟ » فقالت له بصوت عال :

— « إلى مكان أمين جميل يا "أوليشر" ». ثم همست في أذنه قائلة:

٦١



على مقربة من أحد الجسور ، فترجل الخوذي وترجل بعده « سيك » و « أوليشر » ثم أشار « سيك » إلى الخوذي إشارة خاصة ، وأمسك بيد « أوليشر » وسار به في خُطى واسعة ، فما شكّ الغلام المسكين إلا أن رفيقه الظالم قد جاء به إلى هذا المكان ليغرقه في النهر ، ويتخلص منه في هذا المكان البعيد ، فلا يقف أحد على جريمته ، فارتعدت فرائصُ الغلام عندما جالت بخاطره هذه الفكرة ، وازداد يقينه بالخطر الداهم حين رأى « سيك » لا يجتاز به الجسر ، بل ينزل من أحد جانبيه إلى مستوى النهر ، فبدأ له أن يصيح مستغيثاً ، ولكن تذكر المسدّس في جيب غريمه ، ووازن بين الموت قتلاً بالرصاص أو غرقاً في مياه النهر ، فأثر الصمت مستسلماً لمشية الله ، منتظراً مصيره المحتوم .

وصل « سيك » به إلى حافة النهر ، ولكنه لم يَسْرِمْ فيه كما توهم ؛ بل سار به في دَرَب ضيقٍ متعرج ، حتى بلغا كوخاً من الأكواخ مُقاماً على جانب النهر ، فتنفَّس « أوليفر » الصعداء لما رأى « سيك » يطرقُ باب الكوخ طرْقاً خاصاً ثم يَفْتَحُ الباب ويدخل منه إلى الكوخ ، ويستقبله فيه رجلان تبعثُ سَحَنَتَهُمَا بالبُشعة بالدُّعْر في القلوب ، ويقول له أحدهما وهو يشير إلى « أوليفر » : « مَنْ هذا ؟ »

فأقبل « سيك » على الرجلين يحدثهما حديثاً خافئاً ، فبدت على الرجلين علاماتُ الطمأنينة ، بل لعلَّ وجود الغلام قد سرَّهما ، ثم دَعَوَا

٦٧

جرت المركبةُ بالمسافرين جَرَيًّا حَثِيثًا حتى انتصف النهار ، فوقفت عند باب مَطْعَمٍ من المطاعم ونزل « سيك » منها وجرَّ معه « أوليفر » ودخلا المطعم ، فتناولوا فيه طعامَ الغداء ثم دخن « سيك » عدَّة لفافات من التبغ ، ثم خرجا واستقلَّا المركبة فتابعت بهما السير إلى حيث يقصدان بل إلى حيث يقصد « سيك » فإِذَا كان « أوليفر » لِيَدْرِي كما علمنا إلى أين ستنهى بهما خاتمة المطاف ، ولا كان يدرى الغرض من هذه الرحلة .

واستمرت المركبة تجرى بهما حتى توارت الشمس وراء الأفق ،
وبدأ المساء ينتشر على الأمكنة والبيقاع ، وعلى حين فجأة وقفت المركبة

66

وبعد مسير ساعة من الزمان، وقفت المركبة ونزل منها الراكبون وساروا قُدُمًا بين المزارع حتى وصلوا إلى منزلٍ جميلٍ تامٍ في وسط حديقة غناء، يحيط بها سورٌ قليلُ الارتفاع، فوقف الرجال الثلاثة عند جانب من جوانب السور، وأخرج «سيك» مسدسه وسدّده إلى صُدْعٍ «أوليقر» وهو يقول له همسًا: «تذكّر وحذار». ثم تسلّق أحد الرجلين السور وهبط منه إلى الحديقة، ورفع «سيك» الغلام وقذف به إلى الحديقة، فلتقاه الرجل الذي سبقهم إليها، ثم لحق به «سيك» والرجل الآخر، ومشى الرجال الثلاثة والغلام في خطوات خفيفة إلى أن بلغوا باب المنزل، متسترين

وقف أحد الرجلين مستنداً إلى الجدار وعاون الرجل الثاني على أن يرتفع إلى كتفيه ، فلما استقرَّ عليهما بلغ الكوة فأخذ يُعالجُ بابها بما في جيبه من أدوات حتى فتحه ، وهنا اقترب «سيك» من «أوليقر» ورفعهُ بكلتا يديه ، وقذفهُ إلى الرجل الذي فتح باب الكوة ، فتلقاه بيده اليمنى ، في حين أمسك باليسرى حافة الكوة حتى لا يسقط ، وبعد أن استعاد توازنه ، دفع بالغلام إلى مدخل الكوة ولكن ... لمع في المنزل على حين غرة ضوء مصباح أعتبّه طلق ناري سَطَّ «أوليقر» على أثره مرتبياً إلى الحديقة ، فتلقفه «سيك» ثم علا الضجيجُ في المنزل ، فلم يَسعَ للصَّوَص

إلا الهرب ، فتنسلّقوا سور الحديقة ولاذ الرجلان بالفرار ، أما « سيك » فكان أبطأ منهما حركة ، لأنه كان يحمل « أوليفر » مغشياً عليه .

وشعر « سيك » بعد قليل أن سكّان المنزل قد غادروه إلى مطاردتهم ، فأصواتُ الناس ونباحُ الكلاب تمزق سكّون الليل ، وتصلُّ إليه فتحدوه على الإسراع في الهرب ، ولكن كيف السبيل إلى الفرار وهذا الغلام المغمى عليه يعوقه عن الركض والابتعاد عن المطاردين ؟ !

وزاد في قلقه وحسّته سماعه دوى عجلات المركبة التي كانت تنتظرهم ، فعلم أن زميله قد استقلّاها وهربا بها . وبينما هو يجرى على غير هُدًى ، عثرت رجله فوقع في حفرة فتدأى بها هو والغلام ، على أمل أن يستأنف الهرب عندما تخفّ وطأة المطاردة ، وحينما وضع « أوليفر » في أرض الحفرة لحظ أن ذراع الغلام اليسرى يسيل منها الدّم ، فأدرك أن الطلّق الناري قد أصابه دونهم جميعاً ، فأخذ الشّال الملفوف على عنقه ، وربط به جرح « أوليفر » ربطاً محكمًا فنتعه من النزيف ، وقضى ساعات طويلة في ذلك الخبأ ، لا يستطيع الخروج منه . وكان كلّما همّ بمغادرته طقت مسمّعة أصواتُ المطاردين فقَبَعَ فيه ، وعندما بدأت خيوطُ الفجر تلوح في الأفق ، نظر إلى وجه « أوليفر » فرأى جفونه تتحرك كالمستفيق من نومه أو غيبوبته ، فقال في نفسه : إن هذا الغلام سيعوقني عن الهرب ، وجرحه علامة ممّيزة تلفت الأنظار إلى في هذه البقعة ، فقرّر أن يتركه

ويرحل عنه ففعل .

وطلّع الصباح من خلال الغمام الذي كان يملأ السماء ، فأفاق « أوليفر » وهو يرتجف من البرد ، وكان لا يزال خائر القوى ، فاستغرب من وجوده في تلك الحفرة ، فتحرّك قليلاً من موضعه ، فاشتدّ عليه الوجع ، فتحسّس ذراعه اليسرى فإذا هي تنزف دمًا من ثُنَايا رباطها المحكم ، فصاح متألمًا وبقي يزفر ويتنهّد حتى طلعت الشمس ، فاستجمع قواه وخرج من الحفرة ، وأخذ يُجِيل الطّرف فيما حوله ، فلم يعرف أين هو ، فشى بين المزارع لعله يجد أحدًا يستنجده ويُعنى بجرحه ، وظلّ يمشى متحاملًا على نفسه إلى أن لاح له منزلٌ قريبٌ محاطٌ بحديقة مسورة ، فقام في ذهنه الصغير أنه يعرف هذا المنزل وتلك الحديقة ، ولكنه لا يذكر متى رآهما ، فسار إليها يتعثر مرّةً وينهض أخرى ، فوصل إلى باب الحديقة وكان مفتوحًا ، فدخل منه ومشى إلى باب المنزل وهو يكاد يقع من شدة الألم والإعياء ، فما إن يحدّق إلى المنزل وإلى الكوة التي في أعلى الجدار ، حتى ينجلي له الموقف ، ويتذكّر حوادث الليلة الماضية ، ويعلم أنه المنزل الذي حاول اللصوص سرقة معتمدين عليه في غرضهم الأثيم ، ففكّر أن يعود على أعقابهِ هاربًا لثلاثيّنهم بجريمة السرقة ، ولكنه سقط مغشياً عليه عند الباب .

وكان سكّان المنزل يتألّفون من أرملة عجوز وصبيّة حسنة ومن طبّاخ

— « أودُّ من صميم الفؤاد لو مات برداً أو جوعاً أو برصاصة عابرة، حتى ترتاح نفسه من حياة الإجرام التي يحياها . أما الغلام فكان الله في عونهِ وأنقذه من مخالبك وبرائتك » . فصاح فيها اليهودى العجوز :

— « دَعَيْ عَنكَ هَذَا الرِّبَاءَ ... فَأَنْتِ وَ«سِيكَ» تَعْلَمَانِ حَقَّ الْعِلْمِ أَنَّ لِهَذَا الْغُلَامَ قِصَّةً ، وَأَنْتِ سَأَجْنِي مِنْ وَرَاءِ تِلْكَ الْقِصَّةِ مِثَالَ الْجَنِيَّاتِ إِذَا أَنَا قِمْتُ بِأَمْرِ مَعِيْنٍ ... فَإِنْ أَخْفَيْتَاهُ عَنِّي فَالْوَيْلُ لَكُمَا مِنْ انْتِقَامِي ... »

وتركها ذاهلةً مدهوشةً ممّا سمعت ، وانصرف يقضى الليل في منزله الثاني . وفي مساء اليوم التالى زاره هذا الذى يدعى « مونك » ولئن لم يظهر إلّا الآن في سياق روايتنا هذه ، لقد كان على صلة باليهودى العجوز ، يتقابلان سرّاً ويتآمران معاً على الغلام « أوليفر » فأبدا وجهاً لوجه قال اليهودى العجوز بصوت ملؤه الحسرة والأسى :

— « لقد أخفق التّدبير الذى دبّرته ، وعاد أفراد العصابة خاسرين . »

— « إنك تصرّفت تصرّف البلهاء ثم ما لنا وإشراك الغلام في حادث سَطَطُو ؟ أما كنتَ تستطيع أن تجعل منه نَشْئالاً فقط ... كان ذلك يكفيني ! » فقال اليهودى العجوز :

— « كلا . لم يكن من الدّهّل حَمَلُهُ عَلَى النَّشْلِ ، فهو غلام ذكىّ عنيد ، لا يفعل إلّا ما يريد ... ومنذ اليوم الذى جئتني فيه تخبرني أن هذا الغلام هو ضالّتك المنشودة ، وأنا أجهّد في تنفيذ ما اتّفقتنا عليه . . . »

وزاد في تَعَبِي وإرهاقي أن الفتاة « نانسي » أصبحت تدافع عنه . . . »

— « ولماذا تُبَقِّى عليها ؟ اخنقها ما دامت تعرقل خطّتك ... ولكن حذار على حياة الغلام فوته يسبّب لى المتاعب ، ولا بدّ أن تُعرَفَ صلتى بالحادث فأفقد كل شيء . . . أريده أن يصبح وغداً سافلاً لصّاً . . . هذا كل . . . » وتوقف فجأة عن الكلام ، وتشبّث باليهودى العجوز وهو يقول له في ذعر واضطراب :

— « لقد لحث خيال امرأة يتلصّص علينا ويتنصّص إلينا . . . »

فهدأ اليهودى العجوز من رَوْعهِ ، وأكسّد له أن ما من مخلوق رجلاً كان أم امرأة يحسر على تخطي عتبة باب المنزل إلا أن يكون من زُمرة العصابة ، وهؤلاء لا يتلصّصون ولا يتنصّصون ، بل يدخلون تَوّاً حيث يكون . فلما لم يقتنع « مونك » بمنطق العجوز ، شاء هذا أن يُشَبّث له صحّة ما يقول ، فأخذ المصباح وجال و « مونك » في أنحاء المنزل غرفةً غرفةً ، فما لحا آثار إنسان ، فانصرف « مونك » ونفسه فريسةً للهواجس والوساوس .

وظهر « سيك » بعد أيّام ، فما استطاع أن يخبر اليهودى العجوز بمصير « أوليفر » ولا استطاع أن يهدئ من نائزته ، ثم انقضت عدّة أسابيع وما من نبأ عن الغلام ، وكان اليهودى العجوز كلما خلا إلى نفسه طار فكره إلى الغلام « أوليفر » وودّ لو عرف مقرّه فجند له الإنس والجنّ يختطفونه ويعيدونه إليه ، حتى لا يفقد المبلغ الضخم الذى وعده به « مونك »

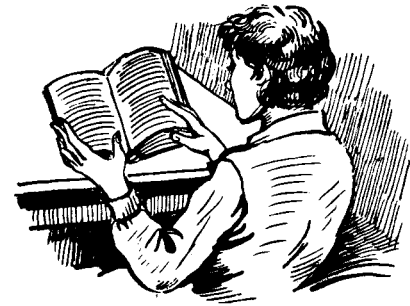


^

جلس موظف الملجأ ذات يومٍ إلى مكتبه يصرف بعض الشؤون ، فطاف به الخيال كل مطاف وانتهى إلى أمرٍ من الأمور فتنهده وقال :
 — « لقد مضى شهران على ذلك الحادث ، ويخيل إلىّ أن مدة هذين الشهرين أطولُ من دهر ! » .

ولعلّهُ كان يشير بذلك إلى زواجه ؛ فمَنْ كانت الزوجة الصالحة التي وقع اختياره عليها وبدأ يتأنف من عشرتها ؟ إنها كانت مدبرة الماعجأ ، فقد ضَمَنَ بذلك الزواج الطعامَ الهنيء والشراب المریء فضلاً عن مبلغٍ من المال نَقَدَته إِيَّاه بعد أن كانت قد ادّخرته فلساً فوق فلس .

وبعد أن تنهد الموظف أی السیّد « بمبل » خرج من الملعجأ وطاف





وأخرجت من جيبها كيساً صغيراً من الجلد ، ووضعتة على المنضدة
فاختطفه « مونك » وفتح بید مضطربة فإذا فيه خاتم زواج وحلية ذهبية
على شكل قلب تحوى على خصلتين من الشعر ، وقد كتب على الخاتم
اسم « أنيس » دون ذكر لاسم الأسرة ، وحفر عليه تاريخ يرجع إلى
قبل مولد الغلام بسنة واحدة ٥

وكان « بمبل » في أثناء ذلك تتنازعه عواملُ عدّة وهو صامت لا يتحرك ولا يتكلم ، فلمّا رأى بأمّ عينه تلك النتيجة اطمانّ بالآء على حياته وحياة زوجته من انتقام الرجل ، وضمن الاستئثار بالمبلغ الذى قبضته زوجته . وسكت الثلاثة قليلاً ، ثم قطع « مونك » حبّـل الصّمت وقال :

— « سأريكما على الفور مصير هذه الحلية » :

وعَمَدَ إلى زاوية من أرض الغرفة فضغط بيده على مُربَّع خشبيّ ،
وللحال انخفض من وسط الغرفة مُربَّعٌ كبيرٌ ، فسُمع تحتَه جَرَيَانُ الماءِ ،
وكان المنزل قائمًا على حافة النهر ، ومتّصلًا به بمجرى من الماء ، فقال
« مونك » :

— « كان في استطاعتي أن أفعلَ هذا الذي فعلتُ عندما كنتم جالسَين فوق المربع الذي انخفض الآن، فتذهبا إلى أعماق النهر جثتين هامدتين، أمّا وقد تبسّنتُ صدقكما، فالمرءة تتقاضاني أن أبقى عليكما، وسأؤلف



كان الليل قد انتصف عندما دخلت الأنسة « وردة » غرفتها ،
والاضطرابُ يقيمها ويُقعدُها ، فقد سمعت من الفتاة « نانسي » أشياء
أذهلتها وعصفت بقلبها ، فاستلقت إلى سريرها لعلَّ النوم ينقذها من
تَوَرَّانِ نفسها وقلقها البالغ ، ولكن هيهات . . . استعرضت في خاطرها
الأشخاص الذين تستطيع أن تبوح لهم بذلك السر الخطير ، فما قرَّ قرارُها
على واحدٍ منهم فبدأت أولاً بطبيب الأسرة ، وكان في ضيافتها ، فقد
دعته أن يصحبهم إلى أحد شواطئ البحر ، وكان السفر مُقررّاً بعد
يومين ، فلم ترتح إلى مباحثته بهذا الأمر لما تعرفه من طبعه الخاف ،
فسوف يرى في كل هذا أضغاث أحلام ، وتذكرت فتى يدعى « هنرى »

هو ابن الحالة التي تعيش معها ولكنها ترددت في استدعائه إليها لأسباب عاطفية لا تريد إثارتها ، فما زال الفكر يطرحها كل مطرَح حتى غلب عليها التُّعاس والتعب فنامت . ونهضت في الصباح مهمومة ، وعادت إلى تفكيرها وقضت فيه ساعة أو ساعتين ، وإذا بالغلام « أوليفر » يدخل عليها مضطرباً وكان قد عاد من نزهة في شوارع « لندن » صحبه فيها « جيل » فحُفَّت إليه « وردة » وقالت :

— « مابك يا "أوليقر" ؟ ما هذا الاضطراب ؟ » فصاح وهو يئنهت:

— « عزيزتي ! ... لقد رأيته ... نعم رأيته ذلك الكريم الذي كان قد استضافني عنده ... رأيته السيد " براون " ... »

— « وأين رأيتَه ؟ »

— « رأيتُه في أحد الأحياء وقد نزل من المركبة ودخل المنزل ، فغلبنى الاضطراب فلم أستطع أن أُهرعَ إليه ، غير أن ” جيل “ قد سأل عنه فعلم أن هذا مسكنه وإليك العنوان » . ودفع « أوليفر » إليها بورقة كتب فيها عنوان السيد « براون » فقرأتها وقالت :

— « سأصحبك يا "أوليقر" إلى هذا السيد الكريم ، ولكن آمنه لي قليلاً من الوقت حتى أرتدى ثياب الخروج ، وأخبر خالتي بأننا ذاهبان إليه » .

وما هي إلا دقائق معدودات حتى كانت الآنسة « وردة » و « أوليفر »



يستقلان المركبة في طريقهما إلى منزل السيد « براون » فلما بلغاه قالت
الآنسة « وردة » للغلام :

— « ابقِ - أنتَ في المركبة لأمهّد لك سبيلَ اللقاء » .

ونزلت الآنسة « وردة » من المركبة وسارت تَوّاً إلى المنزل ، وكانت بعد قليل وجهاً لوجه مع السيد « براون » فتطلّعت فيه فإذا هو رجل وقور جميل السماء ، قد وخط الشيب رأسه فادرت قائلة :

— « جئتُ يا سيدي أحدُك عن غلام كنتَ قد غمرته فيما مضى
بطفلك وحنائك . . . عن غلام اسمه " أوليفر تويست " »

فاهتز الرجل عند سماعه هذا الاسم وقرأت الآتية « وردة » في عينيه
الأسف والأسى ، فعلمت أنه يُضمّر له في قلبه ذكرى أليمة ، فقصّت
عليه قصة الغلام دون أن تذكر له شيئاً عما باحت لها به الفتاة « نانسي » ،
ففضأت قسماً السيد « براون » فرحاً وقال :

— « وأين هو الآن ؟ هلاً جثتي به يا آنسة ! » فقالت :

— « إنه في المركبة على مقربة من الباب ينتظر الأمر بالدخول »

وأصرع السيد « براون » ينزل درج السلم أربعاً أربعاً ، وعاد بعد قليل ممسكاً بيد « أوليفر » والدنيا لا تسعه من شدة الفرح ، ثم نادى مدبرة المنزل ، فجاءت دون أن تعلم أية مفاجأة تنتظرها ، فلم يكذبصرها يقع على « أوليفر » حتى هجمت عليه توسعته تقبيلاً

وتركت الآنسة « وردة » المدبرة العجوز و « أوليفر » يتناجيان ويتبادلان القُبَلات ، وطلبت إلى السيد « براون » أن تحدثه على انفراد ، فأطلعت على كل ما علمت من الفتاة « نانسي » فساورتها من تلك الأنباء دهشة مشوبة بالقلق ، وتطوَّع أن يفتح هو طبيب الأسرة وخالتها بالأمر ، ويتشاوروا جميعاً في هذه المسألة الخطيرة .

ولم يُضع السيد « براون » الوقت ، فصحب الآنسة « وردة » إلى منزلها ومعهما « أوليفر » وهناك تبادل الرأي مع الطبيب فكان من رأى هذا إبلاغ رجال الأمن بالحادث بل بالحوادث ، ووضع الأمر في أيديهم . غير أن السيد « براون » لم ير هذا الرأى وقال :

— « لو شق هؤلاء المجرمون كلهم لضاع الأثر الذى يجب أن نسعى إليه ، وهو معرفة أهل " أوليفر " والتمكُّن من استرجاع ميراثه ... ويخيل إلى أن مفتاح هذه الأسرار كلها هو المسمى " مونك " فلو شكواه إلى السلطات ما فُزنا بكبير طائل ، فليس فى يدنا أى دليل على أنه من رجال هذه العصابة ... وهبتهُ حكم عليه بالسجن بتهمة التشرد ، فسوف يغيب سيرة معه فى غياهب السجون ، فالرأى أن نحتال للقبض عليه حين يكون محاطاً برجال العصابة ، وذلك دون إبلاغ رجال الشرطة ... وليس لنا إلا تلك الفتاة التى جاءت إلى الآنسة « وردة » وعلينا أن ننتظر إلى يوم الأحد » .

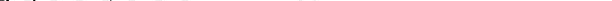
وافق الطبيب والآنسة « وردة » وخالتها على هذا الرأى ، ولكن الطبيب اشترط أن يستشير فى الأمر صديقاً حميماً له يتكل على حصافته وحسن رأيه ولم يكن ذلك الصديق إلا السيد « هنرى » ابن خالة الآنسة « وردة » فلم يمانع السيد « براون » ولا الآنسة « وردة » وإن اصطبغ وجهها بكثير من الاحمرار .

كان اليومُ يومَ الثلاثاء ، فانتظروا جميعاً يومَ الأحد بفارغ الصبر ، وعندما دقَّت الساعة الحادية عشرة تناولت « نانسي » قبعتها وهمت بالخروج وكان « فاجن » اليهودى العجوز فى منزل « سيك » يتجاذب وإياه أطراف الحديث ، فلقت نظره أن « نانسي » تهم بالخروج فقال « سيك » حانقاً :

— « إلى أين فى مثل هذه الساعة المتأخرة ؟ » فقالت « نانسي » :
 — « لن أغيب طويلاً » . فأثار الغضب ناثرة « سيك » فقال وهو يزجر :
 — « ما هذا الجواب ؟ قولى إلى أين أنت ذاهبة ؟ » فقالت « نانسي » :
 — « لا أعرف إلى أين تصلُ بي قدماى ... قلتُ لى لن أغيب طويلاً » . فقال « سيك » :
 — « كلاًّ لن تخرجى . والويل لك إن خالفتِ أمرى » . فاستشاطت « نانسي » غضباً وصاحت بأعلى صوتها :

— «سأجيبني يا سيدتي إن أنا اعتذرتُ عن قَبُولِ مِثْمَحَتِكَ الْكَرِيمَةِ ،
فَمَا قَمْتُ بِمَا قَمْتُ بِهِ بِغَيْسَةِ اكْتِسَابِ بَعْضِ الْمَالِ ، وَلَكِنْ حَسْبِي أَنْ تَهَيَّبَنِي
قُفْأَزَكَ أَوْ مَنَدِيلَكَ ، أَحْتَفِظُ بِهِ مَدَى الْحَيَاةِ أَثَرًا كَرِيمًا مِنْ نَفْسِ كَرِيمَةٍ » .

وكان اليهودى العجوز قابعا في منزله لم يغمض له جفن، وهو يرقب مجيء الجاسوس، لينفض له ما رأى وما سمع، وكانت هذه حاله طول الأيام السبعة الماضية، ولشد ما اضطرب فرحا أو ترحا عندما وفد عليه جاسوسه في تلك الساعة المتأخرة من الليل، وبسط له خبر اجتماع «نانسى» تحت جسر «لندن» برجل وسيدة كانا في انتظارها، وأطلععه على جميع ما سمع من أحاديثهم، فشكره اليهودى العجوز ووجهه الجعَل المتفقد عليه، وسمح له بالنوم في الغرفة المجاورة، والبقاء فيها حتى الصباح.



— « أين نانسي » ؟ فقال اليهودي العجوز :

سقف واحد ، فكيف فرطت في مراقبتها ؟ » فقال « سيلك » :

— « أَنْتَ كَذَّابٌ أَشِيرُ أَيْتَهَا الْعَجُوزُ اللَّثِيمُ . . . »

— « كلا! ولكنني عرّجتُ على المنزل بعد منتصف الليل بقليل ،

— « سأبرهنُ لك على أني لستُ الكذَّابُ الأشرُّ ، وسأجعلك تقنع



غربت الشمس^١ ذات مساء ، فوقفت مركبة من مركبات الأجرة عند دار السيد « براون » فنزل هذا منها ، ونزل بعده رجلان بل عملاقان ، وهما قابضان على ذراعي رجل^٢ ثالث ، فأدخلاه عنوة^٣ إلى المنزل . ولم يكن هذا الرجل الثالث إلا « مونك » .

دخل « مونك » المنزل مكرهاً ، وقاده السيد « براون » إلى مكتبه
ثم قال يخاطب العملاء الواقفين إلى جانبه :

— « اترکانا وُحْدَنَا ، وقفا عند الباب وكونا على مسمع من صوتی » .
فنفَّذَ الرجلان أمر « براون » فما كادا يخرججان حتى قال « مونك » :
— « يدهشني يا سيدي وأنت صديق قديم لوالدي ، أن تعاملني

أن "نانسى" ستُودى بنا جميعاً إلى التَّهْلُكَةِ . . .

وانقلت إلى الغرفة المجاورة ، وأيقظ جاسوسه ، ثم جاء به وهو يفرك عينيه من شدة النَّعَاس ، وقال له بلهجة الأمر النَّاهى :

— « قل لصديق "سيك" كلَّ ما أخبرتنى به عن "نانسى" وعن أحاديثها مع من لقيتهما الليلة تحت جسر "لندن" ولا تُخَفِ منها حرفاً واحداً » . فكَرَّرَ الجاسوس الرواية التى كان رواها لليهودى العجوز ، فلم يكِدْ يصل إلى نهايتها حتى استدار « سيك » على عَقْبَيْهِ ، وخرج مسرعاً ، قاصداً منزله ، فوجد « نانسى » تغطّى فى النوم ، فأيقظها بجفء وغلظة ، وشدّ عليها التَّكْبِير فى السؤال والاستجواب ، فاردّت عليه بجواب تقتنع به نفسه ، فوثب إليها وثبة الذئب الغادر ، وشدّ على عنقها بيديه الأثيمين حتى فاضت روحها وانقلبت جسمة هامدة . . .



في التاسع عشر من ربيعها ، والثانية لم تكن سنّها تتجاوز السادسة ...
وبعد سنة واحدة من ذلك التعارف أحب والدك الابنة الكبرى وأحبته
ووعدها بالزواج . . . »

— « وتوفى في هذه الأثناء بمدينة "روما" نسيب شيخ تاركاً لوالدك كل ثروته ، فسافر إلى "روما" وأصيب هناك بمرض عضال ، فلحقته به والدتك وكانت تقطن "باريس" وصحبتك معها إليه ، فتوفى والدك غداً ووصلكما إلى المدينة ، ولم يترك له وصية فعدت الثروة كلها إلى والدتك وإليك » .

— « وقبل أن يرحل والدك إلى " روما " جاء يزورنى ، وترك عندى صورة كان قد رسمها هو نفسه لشقيقته التى كنت سأنزوجها وكان الألم والندم قد هدا ركنه ، وأخبرنى أنه ارتكب وزراً ثقيلاً يلطخ بالعار سمعة أسرة كريمة ، وأنهى إلى أنه سيفضى ثروته وميراثه ويحولها إلى مال سائل ويترك لك ولوالدتك جانباً منه ثم يهجر البلاد إلى مكان بعيد ، ثم وعدنى بأن يكتب إلى ويطلبنى على جميع أعماله . . . ولكنه لم يفعل وكانت زورته لى هى بيننا اللقاء الأخير . . . »

— « ما لي أنا وهذه الأنباء ؟ أيمع ذلك أن أكون وحيداً أبوي ؟ ! »
 — « على رِسْلِكَ ... سأتم حديثي وإن كنت لا تفهم ما سأقول ...
 تعرف والدك إلى ضابط أرمِل كان له ابنتان إحداها جميلة كالصباح

وعلى أن هذا الغلام أخى . فقال « براون » :

— « لقد وقفتُ على الدليل منذ خمسة عشر يوماً فقط ... أنت تعلم أنَّ لك أخاً ، وأنتك تعرف هذا الأخ ، ولست تجهلُ أنَّ والدك قد ترك وصيةً بشأنه ، ولكنَّ والدتك قد أخفت تلك الوصية ، وأخبرتكَ بذلك وهي تموت . . . كان هناك غلام . . . وهذا الغلام قد أثار شكوكك منذ اللحظة الأولى التي رأيته فيها ، ورأيتَ الشبه بينه وبين والدك . . . ثم ذهبتَ إلى مكان مولده ، وحصلتَ على الدليل ، ورميتَ به في أعماق النهر ... أفستُكِرُ هذه الوقائع أيُّها اللص المنافق المتواري وراء الظلام ، المتآمر مع الأوباش والصوص والأوغاد ، يا من كنت سبباً في موت فتاة من عصاباتكم تساويك ألفَ مرَّة .. أتتحدَّاني بعد يا «إدورد ليفورد»؟! »

فامْتَقِعْ وجهه « مونك » وخارتُ قُواه وقال :

— « لستُ أنا الذى قتلها ! » فصاح فيه « براون » :

۱۱۶

وأُسرَتها ، ويُطِيلُ النظرَ إليه ، ثم غادرت الأسرة الريف إلى « لندن » فلم تقع عينه عليه بعد ذلك ، فحلدجه الرجل ببصره ، وصوبَ إليه نظرة مملوءة بالحقْد والكراهية .

واجتمع القوم في إحدى غرف الفندق ، وتصدَّر السيّد « براون » في المجلس ، وكان في يده بعض الأوراق فقال يخاطب الجمع الحاضر :
« إنَّ على مهمّة شاقّة يا سادة ، ولكن يجب أن أقوم بها ، ففي هذه الأوراق التي بيدي اعتراف هذا الرجل في مسألة تهمّنا جميعاً ، غير أنني حرصتُ على أن تسمعوا منه ذلك الاعتراف » .

ثم وضع « براون » يده على رأس « أوليفر » وقال يخاطب ذلك الرجل الغريب وما هو إلا « مونك » :

« هذا الغلام هو أخوك ... هو الابن غير الشرعيّ لوالدك » إدون ليفورد « وللمسكينة » أنييس فامنج « التي ماتت بعد ولادته بدقائق . . . أليس كذلك ؟ » فقال « مونك » وهو ينظر إلى « أوليفر » الذي كادت تُسمَع دَقَّاتُ قلبه :

« نعم » . فقال « براون » :

« وهذا الغلام مولودٌ في هذه المدينة أليس كذلك ؟ » فقال « مونك » :

« أجل في ملجأ البرّ والإحسان . . . » ثم قال يخاطب الجمع الحاضر وهو يشير إلى الأوراق التي يحملها السيّد « براون » :

« إن في هذه الأوراق القصةَ بخدافيرها فحسبك ذلك » فقال « براون » :

« نريدُ أن نسمعك تقصّها علينا » . فأذعن « مونك » وقال :
« مَرَضَ والدي وهو في " روما " فلحقّت به أمي وصحبته إلى معيها ، وكان الموت قد بدأ يدبّ في جسمه فلم يعرفنا ، وتوفّي في اليوم التالي ، وكان بين أوراقه ورقتان وضعهما في ظرفٍ وعنوانه باسم السيّد " براون " وأوصى أن لا يُرسلَ إليه إلا بعد مماته ، فالورقة الأولى كانت رسالة إلى " أنييس " والثانية وصيّة » . فقال « براون » :

« وماذا كان في الرسالة ؟ » فقال « مونك » :

« اعتراف منه بأنه خدعها ولكنه ذكر لها أن هناك بعض الموانع كانت تحول دون زواجهما العاجل ، ثم طلب منها في الرسالة أن لا تحقد عليه إذا مات ، وأن تغفر له جريمته ، ثم ذكّرها في الرسالة باليوم الذي أهداها فيه حلية ذهبية على شكل قلب ، ونحاتماً نقش عليه اسمها الأول مؤتملاً أن تمكّنه الأقدار من أن يضيف إليه اسم العائلة ، ورجاها أن تحتفظ بالخاتم والحلّية وتضعهما دائماً فوق قلبها » . فقال « براون » وقد رأى « أوليفر » يشهق ويبكي :

« وعلامَ احتوت الوصيّة ؟ » فالتزم « مونك » السكوت فتاب « براون » عنه وقال :

فلم يَسْعَ « بمبل » وزوجته إلا الإقرار، وهما مستنكران خيانة « مولك »
فسُمِحَ لهما بالانصراف . وشكر « براون » للعجوزين الطَّاعَتَيْنِ في السنَّ
شهادتهما الثمينة ، وأوصلهما إلى الباب مودِّعاً ، ثم عاد وأمسك بيد
الآنسة « وردة » وقال يخاطب « مولك » :

— « أتعرف هذه الآنسة ؟ » فقال « مولك » :

— « نعم أعرفها . إنها شقيقة "أنيس" : فبعد موت أبيها ، وهَرَبَ
أختها الكبرى ، احتضنتها أسرة فقيرة من الفلاحين ، ثم لقيتها اتفاقاً هذه
السيدة الحاضرة بيننا فأعجبت بها ، وطلبت إلى تلك الأسرة الفقيرة أن تنزل
لها عنها وهكذا كان ... » فصاحت السيِّدة الوقور مقربةً من « وردة » :
— « هي عندي أعزُّ من ابنة شقيقة ، بل أعزُّ من نفسي ، ولن
أفقدَها ! » فقالت « وردة » :

— « لقد كنت لي يا سيدتي أمماً بِرَّةً رؤوماً ، فلن أنسى فضلك
ما حييت ! » واقترب « أوليفر » من « وردة » وقال لها وهو يعانقها :
— « أمماً أنا فلم تكوني لي خالة فقط ، بل كنت شقيقةً عزيزةً
حبيبةً ... »



الخاتمة

وجرت خاتمةُ أشخاص هذه الرواية على ما يقضى به الحق والعدل
والإنصاف ، فحكِّمَ على « سيك » وعلى اليهودى العجوز بالشَّنَق ، قِصاصاً
لهما على ما ارتكبا من آثامٍ وجرائمٍ ، وعفَّت المحكمة عن الجاسوس « ولیم »
مكافأةً له على إرشاد الشرطة إلى مخبأ اليهودى العجوز ، ثم انتظم في سلك
الشرطة نخادمًا أمينًا للأمن والقانون . وقَسَا القدر على جميع من استخدمهم
اليهودى العجوز في تنفيذ أغراضه ، مِمَّنْ غفلت عنهم عينُ العدالة فكانت
عاقبةُ أمرهم أوْخَمَ العواقب . أما الغلامان « جاك » و « شرلو » فقضيا
فترةً من الزمن في سجن الأحداث ثم خرجا منه وقد استقرَّ في ذهنهما أن
الحياة الحرة العاملة هي ما يرفعُ قَدْرَ الإنسان في أعين نفسه والناس .
فجدَّ واجتهدا وكبرا في ظلال القضاة والاستقامة والعمل الشريف .

واستنكرت إدارة الملاجئ ما قام به « بمبل » وزوجته فطرَّدا منه ،
وقاسيا الهوان والذلَّ وشظفَ العيش سنوات طويلة ثم انتهى بهما الأمر إلى
سكنى الملاجئ لاجئَيْنِ ذليلين بعد أن كانا فيه المدبَّرين صاحبي الأمر
والنَهْيِ والسلطان .

واضطرب « مونك » أن يقدم إلى « أوليفر » نصيبه من ميراث أبيه ،
غير أن « أوليفر » أبتهى له نصفه ليملكه من العيش الحر السليم ،
ولاسيما أنه كان قد بدد نصيبه الخاص به ، فرحل إلى أمريكا محتفظاً باسم
« مونك » المستعار ، ولكنه عاد هناك إلى سيرته الشريرة ، فقضى نحبته
في أحد السجون .

وزفت الآنسة « وردة » إلى الفتى « هنرى » ابن السيّد الوقور التي
ربتها وكفلتها ، فعاشا في ظلال تلك السيّد الكريمة عيشة هنيئة سعيدة
واختارا السكنى في « لندن » وكان طبيب الأسرة يزورهم حيناً بعد حين ،
ويقضى معهم سهرات جميلة . وكان سرورهم يبلغ منتهاه عندما ينضم
إليهم السيّد « براون » ومعه « أوليفر » الذى تبنّاه في غضون جميعاً ساعاتٍ
ممتعة تخفى هناعتهما ما فى فؤاد كل منهم من ذكريات أليمة . . .
ونشأ « أوليفر » نشأةً صالحةً ، وساعدته فضائله ومكارم أخلاقه
وطيب عنصره ، على أن يكون مثال الشباب العاملين النّاجحين . . .